تاجر من طراز فريد

صهيب بن سنان الرومي

رضي الله عنه

قليل هم من يعيشون في الدنيا
دون أن يخطئوا الحسابات

«أنت حر يا صهيب »..

نطق بها عبد الله بن جدعان تاجر بنى تيم ، وهو يربت على كتف عبده صهيب في حنان، والذي تملكته الدهشة وغمرته الفرحة وهو يهتف غير مصدق قائلا:

- أحقا سيدي ما تقول ؟! أحقا أعتقتني ووهبتني حريتي ؟!

قال عبد الله وهو يبتسم:

- كنت تستحقها منذ زمن يا صهيب، ما كان يليق بابن الملوك أن يكون عبدا، منذ طفولتك وأنت موهوب متميز، منذ اشتريتك من سوق الرقيق، أحببت فيك ذكاءك، وعندما كبرت، أحببت فيك إخلاصك واجتهادك في العمل..

وتابع عبد الله وهو يجلس على أريكته:

- عندما اشتريتك وأنت لا تزال طفلا، بعد غزوالروم على بلادكم في العراق، افتخرت بأنك كنت ابنا لحاكم إحدى مدن اليمن، نائبا عن كسري ملك الفرس ، خشيت في أول الأمر أن يلهيك نعيمك وترفك وكل طلباتك المجابة عن خدمتي، والحياة الشاقة التي كانت تنتظرك، ولكنك كنت تثبت يوما بعد يوم، أنك نسيج فريد..

ثم نظر عبد الله بن جدعان إلى صهيب نظرة أبوة وهو يقول:

- أنت لا يليق بك أن تكون عبدا يا صهيب..أنت حر.. حر.

من الصعب وصف فرحة عبد بحريته..إلا أن «صهيبا» بالتحديد، كانت فرحته أضعافا مضاعفة، فصهيب كان طفلا منعما من أسرة حاكمة تأمر وتنهى وتسيطر، طفل ربما يصيبه الملل في حياته؛ لأنه لا يشعر أبدا بالاحتياج..

فإذا بحياته تتحول مائة وثمانين درجة، ليصبح في قمة الاحتياج إلى كل شيء وأي شيء، ويصبح مأمورا دائما وأبدا، وليس له حتى حق الرأي أوالاعتراض..

إن حرية كهذه لهي حرية من نوع خاص..

وبدأ صهيب ينطلق..

وبدأت مواهبه تظهر جلية في التجارة، بعد أن أصبح يدير مشروعاته التجارية بنفسه ولحسابه الخاص..

لقد أصبح صهيب من مشاهير التجار في مكة ومن أثريائها بالطبع..

ولم يكن غريبا أن يعرف صهيب محمدا ﷺ، فمحمد ﷺ كان يدير تجارة سيدة من أكبر تجار

مكة.. السيدة خديجة.

وبالتأكيد سمع.. أو رأى رأي العين في الرسول ﷺ صفات لرجل صادق ذكي عادل..

وفى السنة الخامسة من البعثة...دعاه عقله إلى التفكير بجد فيما يسمع منذ زمن..

إن التاجر الماهر الذكي الصادق يقول: إنه نبي، ويدعوالى عبادة إله واحد، وإلى تحقيق المساواة والعدل ونشر الأخلاق..

كان صهيب يرى أتباع الرسول ﷺ وهم يعذبون أشد أنواع العذاب في صحراء مكة، في مشهد مرعب يثنى كل من يفكر في الأمر، أن يقلع عن تفكيره فورا، ويجعل كل صاحب تجارة، يفكر ألف مرة في أن يعادي أسياد قريش، وهو رجل يقوم عمله بالدرجة الأولى على العلاقات الشخصية.

ولم يكن صهيب قد نهل من حريته ما يكفيه،حتى يجد نفسه بعد أيام أسيرا يلقى أشد أنواع التعذيب..

وكيف لا ؟ وهوالغريب في مكة.. بلا أهل أو عائلة .

لكن يبدوأن نداء الإيمان كان أقوى من كل شيء.

لقد فكر صهيب.. واتخذ قراره الصعب..

أن يسلم..

ولكن عليه أن يحرص على إخفاء الخبر..

لذا.. كان يبحث عن مكان للرسول ﷺ غير الكعبة، فظل يبحث ويبحث، حتى علم بوجود الرسول ﷺ في دار الأرقم، رغم أن الدار كان مكانها سريا من الصعب الوصول إليه، ولكنه استطاع أن يجد مكانه، وسار إلى واد في جبل الصفا ليقرع باب رسول الله ﷺ..و

- ماذا تريد..؟

هتف بها صديقه عمار بن ياسر وقد فوجئ برؤية صهيب أمام الدار، والذي تابع بنفس الدهشة:

- وماذا تريد أنت ؟

أجابه عمار وهو يبتسم ابتسامة حانية في صوت خفيض:

- أريد أن أدخل على محمد فأستمع إلى ما يقول.

رد عليه صهيب في حرارة قائلا:

- وأنا مثلك يا عمار.. أريد ذلك.

وفي سرعة وفرحة الصغار، انطلق الاثنان يدقان باب الأرقم ليجلسا بين يدي رسول الله ﷺ.. وينطقا الشهادتين..

وبدأ ميلاد جديد لصهيب في سن الثالثة والعشرين.. حياة جديدة جميلة لا ينغصها عليه إلا القلق والخوف..

وعبثا حاول صهيب إخفاء إسلامه..لكن قريشا وصلها الخبر..

لقد أسلم صهيب..

وكان سهلا على قريش أن تنال من رجل كان عبدا بالأمس، وهو غريب ليس من مكة، بلا أهل ولا عائلة..

ولقد نالوا منه أشد ما نالوا، وجرت على جسده آلة التعذيب الرهيبة، كما جرت على إخوانه.

لقد حدث ما كان يخشاه صهيب.. اضطهاد وتعذيب وتعثر في تجارته..

إلا أن قريشا لم يكفها ما تفعله بالمسلمين، لقد أدهشها إصرارهم العجيب على مبدئهم رغم ضعفهم الشديد وهول ما يتعرضون له من أذى.. وأمام عجزها المفضوح قررت قريش أن تضرب المسلمين ضربة قوية..

حصار اقتصادي واجتماعي لمدة ثلاث سنوات..لا بيع ولا شراء ولا زواج بين المسلمين وأهل مكة..

ثلاثة سنوات قضاها المسلمون في شعب بنى هاشم يعاقبون أشد العقاب على اختيارهم.. ومن السهل أن نعرف مدى الضرر الذي تعرضت له تجارة صهيب.

يعرف التجار معنى أن تتوقف المشروعات التجارية لمدة ثلاث سنوات كاملة...

إن ذلك يعنى أن يفقد التاجر كل عملائه وتشل تجارته..يعني أن يفقد التاجر معنوياته ويصاب بالإحباط.. يعني أن «صهيبا» عليه أن يبدأ من جديد.

إن الحرب في لقمة العيش، كانت ولا تزال الصخرة التي يتحطم عليها الكثير من المبادئ عند الكثير من البشر..

وقد يتحمل المرء الإهانة وجرح الكرامة وهو لا زال صابرا متماسكا متمسكا بمبدئه...حتى يلوح له بفصله من عمله أوإغلاق شركته أوالإضرار بتجارته.. فيفكر ويفكر ويفكر..

ويستسلم..

كم كنت قويا يا صهيب !!..كم كنتم أبطالا يا مسلمون !!

تحملتم كل شيء وأي شيء من أجل مبادئكم.. من أجل حريتكم..

وحريتنا..

كان الصمود عند المسلمين معنى وقيمة لا يمكن التفريط فيها أبدا مهما كانت التضحيات.. كان الثبات على المبدأ أغلى من الطعام والشراب والتجارة..

ومن الحياة نفسها..

لم يستسلم صهيب..أبدا لم يستسلم أو يتراجع..

ولكن.. أتراه فكر في حاله وسط أشباح الرهبة وألم الجوع داخل شعب بنى هاشم ؟أتراه تذكر أيامه قبل الإسلام، حيث العيش الهادئ المستقر، والنجاح المبهر في التجارة، والأموال الوفيرة التي كانت تسيل بين يديه ؟

ربما فكر؛ لأنه بشر.. ولكنه لم يستسلم؛ لأنه بطل.

ثم إنه كيف يستسلم، ولم تستسلم سيدة تحمل على كاهلها ستين عاما اسمها خديجة ؟! ورجل يجر ثمانين عاما وراء ظهره اسمه أبو طالب؟!

كيف يستسلم.. ولم يستسلم أحد من أهل بني هاشم وهم على غير ملة الإسلام؟!

ثلاث سنوات..بلا فائدة..ولا نتيجة.

لقد كسر صمود صهيب وأصحابه عزيمة المشركين، وقرروا فك الحصار.

وعاد المسلمون يتنفسون شيئا من الحرية من جديد..

ويبدأ صهيب مشوار تجارته مرة ثانية.. ويجتهد وينجح .

كانت ثلاث سنوات أخرى كافية لكى يشتد عود صهيب مرة أخرى في سوق التجارة في مكة، ويبدأ في جمع أموال جديدة.. وثروة جديدة.

ها قد عادت التجارة من جديد يا صهيب .. ها قد عادت الأموال تعرف طريقها إليك مرة أخرى.

لحظة يا صهيب..أنت مطالب بالتضحية بكل ما تملك، إضافة إلى ما جمعته في الثلاث سنوات الأخيرة..

لماذا؟

لأن الرسول ﷺ قرر الهجرة إلى المدينة..

وماذا في ذلك ؟

سأحكي لك..

عندما علمت بنبأ الهجرة، ستقرر الهجرة فورا حتى كنت ستصبح ثالث من هاجر إلى المدينة بعد الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر..

لكن قريشا بعد علمها بهجرة الرسول ﷺ بدأت تضع كمائن للمسلمين المهاجرين، وستقع أنت في أيديهم..

ولكنك ستناور.. حتى تستطيع أن تفلت منهم، ولكنهم سيرسلون إليك فرسانهم للحاق بك

ويحاصرونك.

وستقف أمامهم يا صهيب بشجاعة الفرسان وتهددهم كفارس مغوار قائلا:

- يا معشر قريش..لقد علمتم أني من أرماكم رجلا.. وايم الله.. لا تصلون إلي حتى أرمي كل سهم معي في كنانتي ثم أضربكم بسيفي، حتى لا يبقى في يدي منه شيء، فأقدموا إن شئتم..

وكسياسي بارع ومفاوض محنك، سترمي إليهم بطعم يسيل له لعابهم قائلا في مكر:

- وإن شئتم.. دللتكم على مالي، وتتركوني وشأني.

ويسيل لعاب الفرسان كما يسيل لعاب الأطفال أمام قطعة الحلوى، ويلقون بكلمتهم الأخيرة لحفظ ماء الوجه قائلين في تشنج مغلف بالضعف:

- أتيتنا صعلوكا فقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت بيننا ما بلغت، والآن تنطلق بنفسك وبمالك..؟؟

يا لله.. ما أضعفكم يا قريش..وما أصغركم.. قبلتم العرض بكل هذه السهولة ؟! بلعتم الطعم بكل هذه البساطة؟!

وبسرعة.. أخبرتهم بمكان المال يا صهيب، فهرعوا إليه وأنت تنظر إليهم باحتقار، ثم تصوب بصرك إلى المدينة وتبدأ رحلتك باسم الله..

حيث رسول الله ﷺ..

لقد أيقنت الآن أن صهيب تاجر ماهر.. يعرف ماذا يشتري ومتى يشتري، ويعرف ماذا يبيع ومتى يبيع.

ولقد اشترى صهيب الآخرة بالدنيا.. فربح الآخرة....وما لبثت أن عادت إليه الدنيا بعد قليل.

وصل صهيب للمدينة..وما إن وصل ودخل على رسول الله ﷺ وهو جالس وسط أصحابه ، حتى تهلل وجه الرسول ﷺ وهو يبتسم، وقد رأى في عينيه علامات الرضا والحنان وهو يقول:

«ربح البيع أبا يحيي».

«ربح البيع أبا يحيي».

كم كان الرسول ﷺ لماحا وهو يحدث «صهيبا» باللغة التي يعرفها جيدا..

لغة التجارة..

ربح البيع أبا يحيى..

وأي ربح يا صهيب.. لقد نلت رضا رسول الله ﷺ وشهادة من الله..

أبشر يا صهيب.. لقد أنزل الله فيك قرآنا نتلوه حتى الآن في صلواتنا..

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة].

كلما قرأنا هذه الآية الكريمة تذكرناك يا صهيب..وعندما نفسرها لأولادنا، نذكر قصتك.. قصة التضحية بالمال في سبيل الله وفي سبيل رسول الله ﷺ..

ربح البيع أبا يحيى..

لقد أيقن صهيب أنه قد ربح بالفعل، وأنه لم يخسر شيئا وقد فاز برسول الله ﷺ.. حتى إنه لم يفقد خفة ظله ورسول الله ﷺ يداعبه؛ حين رآه يأكل تمرا وقد أصاب عينيه الرمد، فقال له مندهشا:

«أتأكل الرطب وفي عينيك رمد؟!».

فأجاب قائلا:

- وأي بأس؟ إني آكله بعيني الأخرى !!

إنه ذكي وسريع البديهة..وهما صفتان لا يستغني عنهما كل تاجر ماهر..

إلا أنه كان يتميز بصفة أخري جميلة ونادرة، كان مفرطا فيها حتى إنها أزعجت عمر بن الخطاب ووجه إليه النقد بشأنها..

صفة الكرم والسخاء بلا حدود..

لم يتعلم صهيب من فقدان ماله البخل، لم يتعلم من ضياع ماله العيش لنفسه وعدم التفكير فيمن حوله..

وعندما انتقده عمر بسخائه المبالغ فيه قائلا:

- أراك تطعم كثيرا حتى إنك لتسرف!

فأجابه صهيب في هدوء:

- لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«خياركم من أطعم الطعام».

لقد كان صهيب يتعامل بمنطق التاجر الرابح، وليس الخاسر الذي فقد أمواله كلها في برهة من الزمن ..

ربح البيع أبا يحيى..

ويزيد صهيب التاجر الماهر من ربحه يوما بعد يوم..فيجاهد في بدر ويحارب في أحد ويصمد في الأحزاب..

ليس جديدا عليك الصمود يا صهيب..

وفي السنة الثامنة من الهجرة.. تفتح مكة..

ويدخل صهيب وهو ينظر إلى بيت الله وإلى شوارع مكة وبيوتها..

وإلى أهلها..

لعله كان ينظر في عيون من طردوه ويقول لهم: لقد عدت وعاد إلي مالي..فكيف حالكم أنتم ؟

ويعود صهيب إلى المدينة هذه المرة عزيزا كريما، لا يجرؤ أعتى أسياد قريش أن ينبس له ببنت شفة.. يعود إلى جوار رسول الله ﷺ، يجاهد ويربح ويعيش ويعطي بسخاء..

وينتقده عمر..فيظل يعطي بسخاء.. ولا يتوقف..

إلا أن عمر بن الخطاب الذي كان ينتقده منذ قليل لسخائه الشديد، كان يكن له في نفسه احتراما ومنزلة فريدة..

لقد كان ينظر إليه نظرة رجل من الممكن أن يحل محله في يوم من الأيام..

ولكن عمر لم يصرح بذلك يوما..

حتى جاء يوم قالها عمر بن الخطاب والدماء تسيل من جسده..

عمر خليفة المسلمين يضرب بسكين أثناء إمامته الصلاة..

وفي فراش المرض، يختار عمر ستة من الصحابة ليكون بينهم خليفة المسلمين في حال وفاته..

ولكن.. من يؤم المسلمين حتى يتماثل عمر للشفاء؟

لقد اختار عمر صهيب بن سنان ليؤم المسلمين في الصلاة بدلا منه، رغم أنه كان يعلم أن في لسانه لهجة أعجمية واضحة..

لقد كان شرفا كبيرا لك يا صهيب..وربحا جديدا أضفته إلى أرباحك السابقة..

شهادة الله عز وجل..

ثم شهادة رسول الله ﷺ..

ثم شهادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد المبشرين بالجنة.

وفي السنة الثامنة والثلاثين من الهجرة، وفي مدينة رسول الله ﷺ..

هدأت قافلة صهيب التجارية بعد رحلة طولها سبعين عاما ..

أبشر يا أبا يحيى...لقد ربحت..

بعد أن علمتنا كيف نربح.

* * *

دروس وتحليل

١ - إتقان صهيب لعمله وإخلاصه فيه، أعطاه القدرة على أن يقيم مشروعات خاصة به عندما حانت له الفرصة (صهيب ينجح في إدارة تجارته بعد عتقه).

يعلمنا صهيب هنا درسا في فن الحياة، فالكثير من الشباب عندما يقدم على عمل ربما لا يحاول الاجتهاد فيه ومعرفة أسراره، وهو لا يدري أن اجتهاده وإتقانه في العمل وجهده الذاتي في التعلم، ربما يتيح له الفرصة يوما أن ينفرد هو بعمل خاص يديره بنفسه، فيزيد ربحه أضعافا مضاعفة.

٢ - الإيمان جعل «صهيبا» يضحي بماله كله من أجل دينه، وضعف الإيمان يجعل رجال الأعمال يضحون بوطنهم من أجل ثرواتهم (صهيب يتنازل عن ماله كله لقريش من أجل الهجرة).

كانت تضحية صهيب بن سنان في الهجرة تضحية مركبة:

فترك الديار والوطن في حد ذاته تضحية كبيرة. إلا أن «صهيبا » زاد عليها بتركه لماله كله الذي جمعه بكده وجهده من التجارة في مكة، في مقابل أن تتركه قريش يهاجر للمدينة، وفي ذلك تضحية أخرى لتاجر قضى سنوات في مكة استطاع خلالها أن تكون له تجارة مستقرة، وعملاء ثابتون وسمعة جيدة، وهوالآن مطالب أن يبدأ تجارته من جديد في بلد ليس تجاريا ويعمل أساسا بالزراعة..

إنها تضحية كبرى من صهيب، ما كان ليقدم عليها إلا بعد أن يتوافر لديه مخزون كبير من الإيمان بالله، والاقتناع بأن التضحية في سبيل دينه وعقيدته أمر سيثاب عليه لا شك في الآخرة..

على النقيض تماما، نجد ظاهرة رجال الأعمال الذين يهربون بالملايين والمليارات خارج بلادهم، ليورطوا بلادهم في أزمات مالية، تنعكس قطعا على مستوى معيشة الشعب، وهم يعلمون ذلك يقينا.. ومع ذلك يستحلون لأنفسهم كل شيء في سبيل مصالحهم الشخصية، ولو كان لهؤلاء الرجال قدر من إيمان بالله، لأيقنوا أن ما يفعلوه جريمة في حق بلادهم وأهلهم.

إن الإيمان بالله يعلم التضحية، ويجعل المسلم يعيش لغيره قبل أن يعيش لنفسه، والبعد عن الدين وعدم التعلق بالله، يجعل الإنسان يسحق من حوله في سبيل مصلحته الشخصية.

٣- الإنفاق في سبيل الله صفة جديرة بالحرص حتى مع الفقر (صهيب يصر على الإنفاق بسخاء، رغم انتقاد عمر بن الخطاب له).

رغم فقدان صهيب لكل ماله، إلا أنه كان معروفا بالإنفاق وبصورة مبالغ فيها، جعلت عمر ابن الخطاب ينتقده بسببها.

وكان المتوقع من صهيب بعد أن حدث له ما حدث أن يمارس سياسة التقشف، أو على الأقل لا ينفق إلا ما يفرض عليه، ولكن «صهيبا »كان يفكر دائما بعقلية التاجر الذي يتاجر مع الله وليس مع الناس، فواظب على الإنفاق في أصعب الظروف، طمعا في ربح أكبر.. وهو جنة عرضها السموات والأرض.

* * *